الفصل الثامن

إيران والعراق في العصر المغولي
حالة العالم الإسلامي قبل الغزو المغولي

أوضحنا سابقًا كيف حكم السلاجقة إيران والعراق، وفي أواخر عهدهم نشأت الدولة الخوارزمية في إيران على يد أحد رجال السلطان السلجوقي ملك شاه حيث استقل بالحكم في خوارزم، وكان ذلك في بداية القرن السادس الهجري، فأخضع الخوارزميون أكثر أقاليم إيران لسلطتهم، وانتشر في زمانهم مذهب التشيع الإسماعيلي في إيران خاصة على يد مذهب الحشاشين بقيادة حسن الصباح الذي نقل التشيع الإسماعيلي العلوي المغالي إلى الشام، وكثير من المدن على البحر الأبيض المتوسط، ودخلت الدولة الخوارزمية في خلاف مع الخلافة العباسية، فقد حاولوا احتلال العراق، وفي هذا الوقت كانت الخلافة العباسية ضعيفة، لا تتعدى سلطة الخليفة المستعصم بالله حدود بغداد، والبقية يحكمها أمراء ومتنفذون حيث يتنافسون النفوذ فيما بينهم، واتسمت هذه الفترة بالخلافات المذهبية بين السنة والشيعة، منها ما حصل في بغداد من قيام شيعة الكرخ بالاعتداء على السنة الذين حولهم، ما اضطر الخليفة المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس إلى أن يرسل ابنه أبوبكر بقوة لتأديب شيعة الكرخ ما دفع وزيره المؤيد بالله ابن العلقمي إلى أن يضمر الوقيعة بالخليفة، فكاتب هولاكو الذي كان في إيران وبتسهيل من نصير الدين الطوسي المشهور بالخواجة، الذي أصبح وزيرًا لهولاكو. وفي هذه الفترة كان الأيوبيون يحكمون الشام ومصر، ولم يكن أن الطامعين قد كثروا على إسقاط الخلافة العباسية سواء من داخل العراق أو من خارجه، حيث كان للشيعة وخاصة الإسماعيلية والدولة الخوارزمية

وبعض المماليك الأيوبيين دور كبير في إضعاف الخلافة في بغداد والقضاء على النفوذ العربي السني خاصة ما سهل على المغول اجتياح العراق بقيادة هولاكو. وعمومًا فقد اتسمت أحوال إيران في العصر المغولي بالاضطرابات والثورات التي قادها مختلف الاتجاهات المعادية للمغول منها حركات وثورات شيعية، ومنها حركات صوفية تزعمت الطبقات الضعيفة من الفلاحين والمتضررين من الحكم المغولي[١].

دخول المغول:

كان يسكن صحراء الصين قبل الميلاد قبيلتان تركية ومغولية، وكانت حياتهم رعوية اشتهرت بالشدة والغلظة استقرت القبيلة التركية في القرن السادس الميلادي في تركمانستان، أما القبيلة المغولية، فقد استقر بها الحال بمنغوليا بقيادة جنكيز خان، وذلك عن طريق الاحتلال والقتل بقسوة، حيث يقول عنهم المؤرخون: إنهم قبائل متوحشة، وكان أكثريتهم من التتار، اتخذ جنكيز خان سنة ١٢٠٦م جيشًا لهم، وعمل على توسيع دولته، فاحتل بكين سنة ١٢١٥م، ثم استولوا على تركستان وفرغانة، ثم اصطدموا بجيش الدولة الخوارزمية بقيادة خوارزم شاه، ودخلوا بخارى، وعملوا فيها السيف، وبعدها احتلوا جرجانة ونيسابور، وهرب أمامهم خوارزم شاه داخل بحر قزوين، وهراة، ثم دخل سمرقند سنة ١٢٢٠م، واحتلوا غزنة، ثم باميان، ثم ساروا إلى همذان، فصالحهم أهلها، ودانوا لهم بالطاعة، ثم تقدموا إلى جورجيا، ولكنهم لم يوفوا بالصلح من همذان، فخربوها، ونهبوها، ثم استولوا على أردبيل وتبريز، وانقسم الجيش المغولي إلى قسمين: أحدهما اتجه إلى بلاد القرم، والآخر بقيادة جنكيز خان اتجه إلى قم والري (طهران) فقد دمر جنكيز خان بجيوشه شمال إيران وغربها محدثًا القتل والحرق والتخريب، وقد سلمت الأقاليم الجنوبية من إيران

(١) أحمد عودات: تاريخ المغول والمماليك، ص٩ وما بعدها، دار الكندي، الأردن، ١٩٩٠م.

من هذا المصير، ثم رجع جنكيز خان على منغوليا ١٢٢٥م فقد توفي سنة ١٢٢٧م عن عمر يناهز السبعين عامًا، وجاء بعده ابنه أوكيتاي، وفي زمنه عادت مملكة خوارزم شاه لبعض الأقاليم فترة من الزمن، ثم قضى عليها الجيش المغولي بقيادة ابن جنكيز خان أوكيتاي سنة ١٢٣١م، فواصل الجيش المغولي احتلاله للجزيرة وشمال العراق وديار بكر، واتجهوا إلى آسيا الصغرى، وهزموا الجيش السلجوقي، وصالحوه على فدية سنة ١٢٤٣م، وفي إيران استمر أمراء المغول في حكمها، ولما كانوا غير متدينين بدين سماوي حاول النصارى إقناعهم بالمسيحية، وجرى على ذلك محاولة من سفارة البابا ومن الملك لويس التاسع، تعهدوا بحماية النصارى وكنائسهم ونتيجة لاحتكاك أمراء المغول بالمسلمين، ولدوافع فيما يبدو سياسية ليسهل انقياد المسلمين للمغول اعتنق الأليخان المغولي (نكورد) الإسلام، وأعلن ذلك في بلاد الإسلام، ولكنه قتل على يد قادة المغول وبعده كان أوضح مثال على دخول أمراء المغول الإسلام هو اعتناق الأيلخان غازان بن أرجون خان الديانة الإسلامية، ونادى بالإسلام بوصفه دينًا رسميًّا للدولة، وتبعه بذلك بقية المغول، وذلك عام ١٢٣٥م على مذهب الشيعة الإثنا عشرية، واشتهر بعدم التعصب لمذهبه الشيعي، ونعم المسلمون عمومًا في إيران بالاستقرار والهدوء في هذه الفترة.

وجاء بعد غازان هولاكو، وهو حفيد لجنكيز خان، فحاول إخضاع الإسماعيلية المتركزين في طالقان وقلعة الموت، وذلك سنة ١٢٥٦م وقيل: إن هولاكو طلب من الخليفة العباسي إمداده بالجيش للقضاء على نفوذ الإسماعيلية المعززين من قبل الدولة الفاطمية بمصر، ولما لم يستجب الخليفة لذلك فكر هولاكو في غزو بغداد، وقد حاول الخليفة إرسال هدايا إلى هولاكو ليتقي شره ولمهادنته.

وفي هذا الوقت كان في قلعة الموت الشيخ نصير الدين الطوسي الملقب بالخواجة، وكان على المذهب الإسماعيلي مدعيًا أن الشيعة الإسماعيلية قد

احتجزوه، وطلبوا منه تأليف بعض الكتب في المذهب، وقد فعل ذلك، وأرسل إلى هولاكو خطابًا يذكر فيه أنه قد رأى في المنام أن هولاكو وجيشه يتقدم والأقاليم تتساقط أمام زحفه فاستدعاه هولاكو، وأصبح مستشارًا له، وأعلمه هولاكو برغبته في احتلال بغداد، فكاتب نصير الدين الطوسي وزير الخليفة العباسي المستعصم بالله المدعو بالمؤيد بالله ابن العلقمي، وكان ابن العلقمي حاقدًا على الخليفة وعلى ابن الخليفة أبوبكر الذي قمع بشدة شيعة الكرخ، وكان ابن العلقمي على مذهب الشيعة، وقد قيل: إنه أخبر نصير الدين الطوسي، وشجع على قدوم هولاكو لفتح بغداد، فسار هولاكو بجيشه إلى بغداد، وسهل له ابن العلقمي الدخول مباشرة إلى قصر الخلافة حيث واجه اثني عشر ألفًا من الجند، فقتلوا جميعًا، وكان ذلك في كانون الثاني سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ).

وبدأ بقصر الخليفة، فقتل جميع القادة، واستولى جيشه على أموال الناس، فقاموا بقتلهم وتخريب بيوتهم وإشعال النيران فيها مدة أربعين يومًا، انسحب منها جيش هولاكو خشية الأمراض، ثم اتجه لاحتلال كردستان، ودخل الشام سنة ١٢٥٩م، وكان فيها ضعفاء من أمراء الأيوبيين خاصة في حلب، واتفق أمير أنطاكية الصليبي مع هولاكو ضد المسلمين، فشجعه على احتلال دمشق، فوضع السيف في رقابهم، وخرب البلاد، فهرب ناصر الدين الأيوبي على مصر، ثم سار جيش المغول إلى نابلس ثم الخليل، ثم السلط وبانياس وبعلبك، وقام بتعيين أمراء من الفرس على تلك الأقاليم وذلك نظير اشتراكهم في جيشه الغازي، وفي هذا الوقت رجع هولاكو إلى منغوليا وترك (كتبغا) أميرًا على الشام، فقام هذا بالتحالف مع الصليبيين الذين كانوا قد احتلوا أجزاء ومدنًا على البحر المتوسط وعلى القدس. وكان يحكم مصر الظاهر بيبرس أحد أمراء المماليك، حيث أعد جيشًا لملاقاة المغول، فالتقى الجيشان في معركة عين جالوت معززًا بجيش الأمير قطز القادم من مصر والظاهر بيبرس الذي كان في

الشام، واستفادوا من رحيل هولاكو مع بعض جيشه، فانتصر المسلمون في هذه المعركة في تموز سنة ١٢٦٠م وقد ساعد الصليبيون في أنطاكية الجيش المغولي في هذه المعركة بخلاف الصليبيين في عكا الذين قد أدركوا ربما قوة المماليك في هذه المعركة، فكانت الهزيمة الأولى والأخيرة للمغول، واستقرت معظم الشام لحكم المماليك، وأنقذت مصر من الخراب المغولي.

واستمرت إيران يحكمها الإيلخانيون من أمراء المغول الذين بدأ نفوذهم يضعف بسبب الخلافات فيما بينهم إلى أن ظهر فيما بينهم تيمور الذي اتخذ سمرقند عاصمة له سنة ١٣٧٩م وكون جيشًا مزيجًا من المغول والترك، وبدأ بالزحف على أقاليم إيران حتى خضعت له جميع الأقاليم، ثم زحف بجيشه إلى العراق، فاحتل بغداد، وعين أميرًا له على الحلة، ثم اتجه بجيشه إلى الشام، فأخضع تلك المناطق لحكمه، ثم سار إلى تركيا، واحتل أجزاء منها، واحتل أنقرة سنة ١٤٠٢م، وسجن السلطان العثماني بايزيد، وأصبحت إمبراطورية التيموريين واسعة قامت على أنقاض وامتداد الإمبراطورية المغولية حيث اتجه تيمور لاحتلال الصين، ولكنه توفي قبل دخول بكين سنة ١٤٠٥م، وبدأ الضعف يدب سريعًا في هذه الإمبراطورية التي بدأ الأمراء يتقاسمون نفوذها حيث قامت الدولة العثمانية بعد ذلك ببسط نفوذها، وقامت الدولة الصفوية بعدهم في إيران سنة ١٥٠٢م[1].

(١) بطروشوفسكي: المصدر السابق، ترجمة: د. السباعي محمد السباعي، ص٣٤٥-٣٤٦ وما بعدها، دار الثقافة للنشر، القاهرة (--١٩م).